من ألف من الرجال يكادون أن يكونوا كلهم من القوزاق واحرز اول انتصاراته في ٢٢ تموز يوليو ١٥٨١ وساعده في عمله مساعدة كبيرة عدد من التتر ومن الأسرى الليتوانيين والألمان ولكن الجسم الرئيسي من جيشه الصغير كان مؤلفاً من قوزاق الدون . وعندما وصل القيصر خبر اول الاضطرابات على الحدود غضب غضبا شديدا على مسببي اعمال العنف هذه التي تمت بدون ترخيص منه وأمر باعتقال ايرماق وارساله الى بيرم . الا ان انتصارات القوزاق ما لبثت أن وضعت حدا لاستيائه . ولم يلق هذا الجيش الصغير بعد اجتياز الأورال ببنادقه القديمة ومدافعه الا مقاومة ضعيفة وهو يستولي باسم القيصر على أراض شديدة الاتساع . وفي السادس والعشرين من تشرين الاول اكتوبر ١٥٨١ وصل إيرماق الى نهر إيرتيش أو سيبير حيث استولى على غنيمة كبيرة من الذهب والحجارة الكريمة والسجاد والفراء من شعب الأوستياك الذي كان يعيش هناك حتى ذلك الوقت بسلام على الوثنية ويعبد أصناماً من الذهب .

وفي الربيع من عام ١٥٨٢ تابع إيرماق الفتح في الأراضي الواقعة بين الإيرتيش والأوبي متبعاً نحو الشمال مجرى الأول من هذين النهرين . وقد بلغ الأوبي بعد سلسلة من المعارك الصغيرة أمن له التفوق فيها بارود مدافعه . ثم توقف إيرماق عند أوبي وأرسل الى إيڤان تقريراً مرفقاً بهدايا ثمينة تقبلها القيصر وغدا معجباً وسعيداً بأن يشاهد مثل هذه الأراضي الشاسعة تضم الى تاجه . وقامت في موسكو الاحتفالات . ولكن جيش الغزو ما لبث أن انسحب بعد موت إيڤان وغرق إيرماق نفسه وهو يحاول اجتياز الإيرتيش سباحة وهو بكامل سلاحه ، إلا أن ممراً الى أعماق آسيا الشمالية كان قد فتح وأصبح مطروقاً وكان الروس يعدون انفسهم لاقتحامه من جديد .

* * *